انطلاقة النجاح

انطلاق صناعة السينما في نيجيريا

الممثل النيجيري وولي أوجو والممثلة المغربية فاطيم العياشي أثناء تصوير فيلم «المدير التنفيذي» في لاغوس، نيجيريا.

ستيف أومانوفيمي

أدرجتها مجلة تايم في عام ٢٠١٣ في قائمة أكثر ١٠٠ شخصية مؤثرة، جنبا إلى جنب مع ميشيل أوباما وبيونسيه. ولديها أكثر من مليون معجب على صفحتها على فيسبوك. وهي سفيرة برنامج الأغذية العالمي للأمم المتحدة وناشطة في منظمة العفو الدولية. وهي بالتأكيد واحدة من أكثر الممثلين شعبية الذين لم يسمع عنهم أكبر عدد من الناس خارج إفريقيا.

التقي أوموتولا جالاد إكيندي، ملكة نوليوود، وهو الاسم الذي يطلق على صناعة السينما النيجيرية. فهي دليل حي على ديناميكية صناعة السينما في نيجيريا بأكثر من ٣٠٠ فيلم وملايين من نسخ الفيديو المباعة. وبعد عقود من النمو البطيء، فإن نوليوود، وهي واحدة من أكبر صناعات السينما في العالم من حيث عدد الأفلام المنتجة، تمثل قصة نجاح كبير.

وتبلغ قيمة الصناعة حاليا ٨٥٣,٩ مليار نيرة (٧,٢ مليار دولار)، أو ١,٤٢٪ من إجمالي الناتج المحلي لنيجيريا. وتوظف هذه الصناعة أكثر من مليون شخص بشكل مباشر أو غير مباشر. وتوصف بأنها ثاني أكبر مصدر لفرص العمل في البلد بعد الزراعة. واستنادا إلى الكم الهائل من الأفلام المنتجة وجودتها، يرى المراقبون الاقتصاديون أن نوليوود إحدى البنود الرئيسية لتنويع الاقتصاد النيجيري. ووفقا لروبرتس أوريا، الرئيس التنفيذي السابق لبنك التصدير والاستيراد النيجيري، وهو بنك إنمائي تمتلكه الحكومة الاتحادية، فإن نوليوود تولد ما لا يقل عن ٥٩٠ مليون دولار سنويا. ولا يزال هذا الرقم صغيرا، بالنظر إلى حجم اقتصاد نيجيريا وعدد سكانها، ولكن هذه الصناعة تحدث فرقا.

ووفقا للممثل والمنتج تشارلز أوروم، يمكن للجميع رؤية تأثير نوليوود على نيجيريا. فيقول إنه «بخلاف أشياء أخرى، استحدثت نوليوود الآلاف من فرص العمل لكثير من النيجيريين. والصناعة مفتوحة لجميع الموهوبين من جميع مجالات صناعة السينما. وقد منعت وخفضت معدل الجريمة في البلد بشكل كبير، ووفرت طعاما على المائدة للناس، وكان لها تأثير مضاعف هائل. فهي صناعة يمكن أن تكون مصدر الدخل الأول في البلد إذا ما توافرت لها بيئة مواتية. وقد حسنت أساليب حياة النيجيريين».

قصة نجاح إفريقية

يتابع أفلام نوليوود عدد كبير من الناس في إفريقيا والأفارقة المنتشرون حول العالم. واكتسبت هذه الأفلام شعبية أثناء الثورة الرقمية في أوائل تسعينات القرن الماضي، عندما حلت كاميرات الفيديو الرقمية محل كاميرات التسجيل على شرائط ٣٥ ملم وحلت النظم الرقمية محل الشريط السينمائي كأجهزة تسجيل. واستمرت نيجيريا في استخدام أشرطة وأجهزة الفيديو الرخيصة العاملة بنظام الفيديو المنزلي (في إتش إس)، والتي كانت متاحة بسهولة وبأسعار معقولة للمستهلكين، ولكن تطورت تكنولوجيا الأفلام في نهاية المطاف وبدأت الأفلام المسجلة على الأقراص متعددة الاستخدامات الرقمية (دي في دي) تولد طلبا كبيرا.

ويتكلف إنتاج الفيلم في نيجيريا ما بين ٢٥ ألف دولار و٧٠ ألف دولار في المتوسط. وتُنتج الأفلام في غضون شهر وتحقق أرباحا في غضون أسبوعين إلى ثلاثة أسابيع من طرحها في الأسواق. وتفيد التقارير بأن الأفلام التي تصدر على الأقراص متعددة الاستخدامات

الرقمية تباع بسهولة أكبر وتصل مبيعاتها إلى أكثر من ٢٠ ألف نسخة، وتزيد مبيعات الأفلام الأكثر نجاحا عن ٢٠٠ ألف نسخة.

ويرى الكاتب النيجيري باتريك إيبيو أن شعبية الأفلام النيجيرية لا ترجع إلى انخفاض تكلفة الوحدة فقط ولكنها ترجع أيضا إلى «المحتوى الأصلي للقضايا التي يهتم بها جمهور عريض.» ويقول إنه من خلال مزيج من القصص الإفريقية والتكنولوجيا الغربية، «توثق هذه الأفلام وتعيد إنتاج الأحداث الاجتماعية والسياسية والثقافية». ويقول المدير العام السابق لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو)، كويشيرو ماتسورا، إن «إنتاج الأفلام

صناعة السينما في نوليوود ليست للترفيه فقط ولكنها صانعة للمال أيضا.

والفيديو من الأمثلة البارزة على كيف يمكن لصناعات ثقافية، بوصفها وسائل لنقل الهوية والقيم والمعاني، أن تفتح باب الحوار والتفاهم بين الشعوب، وكذلك أمام النمو الاقتصادي والتنمية».

وتشير الممثلة إيبوبي نواغبو إلى أن نوليوود ألقت الأضواء على نيجيريا عن طريق وضعها على خريطة العالم. وتقول «هناك أسباب كثيرة لنجاح هذه الصناعة في إفريقيا، ولكن أهمها هو القبول والاعتراف. فقد حظت نوليوود بالقبول. وهي بالتأكيد صناعة يمكن الاعتماد عليها. فقد استطعنا أن نحكي قصصنا بطريقتنا الإفريقية، ويرى الأفارقة أنها ذات صلة بهم».

وترى ليليان–أماه ألوكو، وهي ممثلة ومنتجة وكاتبة سيناريو، أن نجاح نوليوود في إفريقيا يرجع إلى تصويرها لأفارقة يسردون قصصا إفريقية بطريقتهم الخاصة، وفي كثير من الأحيان بلغاتهم. وتقول «إن التشوق للإنتاج المحلي فتح الطريق أمام تلفزيون الدفع لكل مشاهدة في القارة، مما ساعد بدوره على توفير بعض التمويل للمنتجين، إما عن طريق شراء المحتوى الذي ينتجونه أو التعاقد على الإنتاج. كما أن انتشار استخدام الإنترنت في القارة ساعد بشكل بسيط في حل مشاكل التوزيع، حيث أصبح المحتوى متاحا الآن على الإنترنت».

التاريخ الطويل

على الرغم من أن إنتاج الأفلام شهد صعودا منذ الستينات، فقد حققت صناعة الفيديو المنزلي في نيجيريا، نوليوود، قفزة كبيرة في عام ١٩٩٢ بعد أن طُرح في الأسواق الفيلم المثير المعنون «العيش في عبودية». ويحكي هذا الفيلم، الذي كتب قصته كينيث إنيبوي وأوكيشوكو أوغونجيوفر، قصة رجل أعمال قتل زوجته في طقوس التضحية الإنسانية مما جعله غنيا بين عشية وضحاها ولكن طارده بعد ذلك شبح زوجته. وأصبح الفيلم على الفور أول فيلم نيجيري يحقق مبيعات ضخمة. ومنذ ذلك الحين، حققت آلاف من الأفلام نجاحا مماثلا.

وأعاد طرح فيلم «العيش في عبودية» إحياء صناعة الفيديو المنزلية، التي كانت قد بدأت قبل ذلك بعقود. وفي الواقع، جاءت تجربة إنيبوي بعد سنوات من العمل الشاق من قبل صناع السينما الرواد مثل هوبير أوغندي، وجاب أدو، وأولا بالوغون، ومرزيس أولايل (بابا سالا)، وإدي أوغبوما. وتعتبر الصناعة هؤلاء المهنيين الجيل الأول من صناع الأفلام النيجيريين.

وأصبحت نيجيريا منخرطة بشكل كامل في إنتاج الأفلام في السبعينات، حين أنتج في البلد أول فيلم روائي أصلي بعنوان «حصاد كونغي» عن قصة كتبها وول سوينكا الحائز على جائزة نوبل. ولكن أخرج هذا الفيلم مخرج أمريكي، وكان عدد كبير من أفراد الطاقم من الأجانب. وفيما بعد، اشترك عدد أكبر من الناس، مثل بالوغون وأوغبوما وليدي لابيدو، على سبيل المثال لا الحصر، في إنتاج الأفلام الأصلية. وبما أن لنيجيريا مثل هذا التاريخ الطويل في صناعة الأفلام، فإن كثير من الناس ينتقدون عدم أصالة مصطلح نوليوود، حيث إنه مجرد تقليد لتسميات أكبر صناعتين للسينما في العالم وهما هوليوود في الولايات المتحدة وبوليوود في الهند.

ولم تُدرك أهمية نوليوود بالنسبة للاقتصاد النيجيري تماما إلا عندما أعيد تحديد قاعدة حساب إجمالي الناتج المحلي النيجيري في عام ٢٠١٤. واشتملت القطاعات التي ضمتها عملية إعادة تحديد أساس الحساب على الفنون والترفيه والاستجمام؛ والمؤسسات المالية وشركات التأمين؛ والعقارات والخدمات المهنية والعلمية والتقنية؛ والخدمات الإدارية وخدمات الدعم؛ والإدارة العامة، والتعليم، والصحة البشرية، والخدمات الاجتماعية؛ والخدمات الأخرى — ولم تكن هذه القطاعات مدرجة من قبل في إجمالي الناتج المحلي على الإطلاق. ومن بين الشرائح التي أدرجت لأول مرة هناك نوليوود، وقطاع تكنولوجيا المعلومات، وصناعة الموسيقى، والمبيعات عبر الإنترنت، والاتصالات. ونتيجة لعملية إعادة تحديد قاعدة الحساب، قفز إجمالي الناتج المحلي النيجيري في عام ٢٠١٣ من تقدير أولي قدره ٢٨٥,٥ مليار دولار إلى ٥١٠ مليارات دولار.

الفرص المتاحة للنمو

من الواضح أن صناعة السينما في نوليوود ليست للترفيه فقط؛ ولكنها صانعة للمال أيضا. وقد أشير إلى انتشار التكنولوجيا الرقمية كمحرك للنمو في صناعة السينما، وستواصل التكنولوجيا أداء هذا الدور مع استمرار زيادة الاستهلاك المحلي والأجنبي. كما تسهم زيادة إمكانية الوصول إلى الإنترنت، وزيادة استخدام الهواتف الذكية، وتحسن عرض النطاق الترددي في ازدهار الإنتاج.

ومن المرجح أن تولد زيادة الطلب على البرمجة فرصا جديدة لمنتجي المحتوى أيضا. ووفقا لتقرير شركة برايس ووترهاوس كوبرز، فإن إيرادات نيجيريا من قطاعي الترفيه ووسائل الإعلام يمكن أن يتضاعف من ٤ مليارات دولار في عام ٢٠١٣ ليصل إلى ٨,٥ مليار دولار تقريبا في عام ٢٠١٨، وستكون الإنترنت المحرك الرئيسي لذلك. ومن المتوقع أن يصل عدد المشتركين في خدمات الإنترنت المتنقل إلى ٥٠,٤ مليون نسمة في عام ٢٠١٨، مرتفعا من ٧,٧ مليون في عام ٢٠١٣، وفقا للتقرير. وبالإضافة إلى ذلك، يمثل تزايد عدد السكان الشباب في المنطقة وتطور الإنترنت إمكانات ضخمة لهذه الصناعة.

وبالمثل، من المتوقع أن تصل نسبة اختراق التلفزيون المدفوع إلى ٢٤,٤٪ في عام ٢٠١٨، ومن المتوقع أن تزيد المنافسة بين مشغلي التلفزيون الأرضي الرقمي بعد انتقال نيجيريا إلى النظام الرقمي. ولكن هناك بعض الشك حول ما إذا كان البلد سيستطيع الوفاء بالموعد النهائي المقرر للانتقال إلى النظام الرقمي في يونيو ٢٠١٦ والمحدد بموجب اتفاق في عام ٢٠٠٦ أبرم بواسطة الاتحاد الدولي للاتصالات التابع للأمم المتحدة.

وتتيح منصات مثل iROKOtv في نيجيريا قنوات توزيع جديدة لأكثر من ألفي فيلم من أفلام نوليوود تنتج سنويا. وتدعي هذه الشركة التكنولوجية، التي تدفع للمنتجين من ١٠ آلاف دولار إلى ٢٥ ألف دولار تقريبا مقابل حق بث المحتوى الذي ينتجونه لفترة من الزمن، أنها أكبر موزع في العالم على الإنترنت للمحتوى الإفريقي، وتضم قائمتها ٥ آلاف من أفلام نوليوود.

فتاة تتفحص الأقراص متعددة الاستخدامات الرقمية في سوق للأفلام النيجيرية في لاغو، نيجيريا.

ومع نضوج نوليوود، من المتوقع أن تتغير توقعات المستهلكين، وقد تكون هناك حاجة إلى مراجعة الممارسات الحالية وأساليب التسعير والتسليم. ومع ظهور تكنولوجيات بديلة لتوزيع الأفلام، مثل تلك التي توفرها خدمات مثل آبل ستور ونتفليكس (Apple Store وNetflix)، سوف يطلب المستهلكون المزيد.

وستظل الحاجة إلى المحتوى المحلي بالغة الأهمية لتطوير هذه الصناعة. ويرى تشارلز إيغوي، المخرج والمدير التنفيذي لشركة الإنتاج «نوليوود العالمية»، أن المحتوى يتحول بسرعة إلى محتوى رقمي، وهناك زيادة هائلة في محتوى الأفلام في جميع الأشكال. ويضيف «سيكون على شركات الاتصالات الكبرى تحسين أساليب تسليم المحتوى ... وبناء القدرة التي تجعل المحتوى ضروريا إذا أردنا أن نبقى في هذا الحيز.»

التعامل مع القراصنة

غير أن شعبية نوليوود تعني أيضا مشاكل قرصنة خطيرة. واستنادا إلى بيانات صادرة عن البنك الدولي، تشير تقديرات *TRUEAfrica.co* إلى أنه مقابل كل نسخة مباعة بشكل شرعي، هناك تسع نسخ أخرى مقرصنة يتم تداولها. وهذا يعني تحقيق دخل قليل أو عدم تحقيق أي دخل لصانعي الأفلام ويعني عمليا عدم وجود إيرادات للحكومة.

وتُستهلك أفلام نوليوود بشكل متزايد خارج نيجيريا. وعدد تجار التجزئة الذين يبيعون هذه الأفلام قليل وفي مناطق متباعدة في معظم المدن. وعلى الرغم من نجاح الأفلام، فإن دخل ممثلي نوليوود منخفض. وحتى أشهر الممثلين لا يحصلون إلا على ما بين ألف دولار و٣ آلاف دولار عن الفيلم. ولا يحصل على دخل أكبر إلا عدد قليل منهم. ويبدو من المرجح أن التحميل غير المشروع للأقراص متعددة الاستخدامات الرقمية المهربة سوف يستمر في تقويض الإيرادات.

وتتخذ الدولة خطوات لتعزيز حقوق الملكية الفكرية، بما في ذلك عن طريق صندوق حكومي بقيمة ٩,٨٥ مليون دولار لتحسين شبكة توزيع المحتوى في نيجيريا. وبالتالي يرى العديد من المحللين أن التعاون القائم بين البنك الدولي ومجلس ترويج الصادرات النيجيرية ولجنة حقوق التأليف والنشر النيجيرية والمجلس الوطني للرقابة على الأفلام والفيديو أمر ضروري وعاجل.

ومع مرور الوقت، سيكون على نوليوود أن تتخلى عن نماذج التسعير والإمداد الحالية التي خدمت الصناعة بشكل جيد للغاية وأن تتحول نحو المعايير الأكثر قبولا عالميا. وقد بدأت الصناعة بالفعل في رفع معاييرها بحيث تتطابق مع معايير صناعات السينما في البلدان الأخرى. وبدأت تظهر على الساحة مجموعة جديدة من الممثلين المحترفين، ومن بينهم جينيفيف إيناجي، ورمزي نوح، وكونلي أفولايان، وديزموند إليوت.

وتستعد نوليوود وملكتها أوموتولا التي تصدرت مؤخرا قائمة الممثلين الأعلى دخلا حيث تحصل على ٣٢ ألف دولار عن الفيلم للفرص الجديدة وتحقيق أرقام قياسية جديدة. ■

ستيف أومانوفيمي صحفي في مجال الأعمال مقره لاغوس.